

مبحث في دراسة البطريسطيقا

بتلم الدكتور على الغمراوي

أستاذ مساعد تاريخ وحضارة المصور الوسطى بجامعة عين شمس وجامعة الكويت

اعتمدت في هذه البحث على هاتز فرايهر فون كامبهاوزن « آباء الكنيسة اليونان » (الطبعة الرابعة . شتوتجارت ١٩٦٧) (١) و « آباء الكنيسة اللاتين » (الطبعة الثانية . شتوتجارت ١٩٦٥) (٢) ولويس جون بيتو « دليل دراسة التاريخ الوسيط » (طبعة منقحة . نيويورك ١٩٦٤) (٣) وقاموس أكسفورد الكلاسيكي (الطبعة الثانية . أكسفورد ١٩٧٠) (٤) .

موضوع البطريسطيقا هو البحث في المؤلفات الأدبية واللاهوتية لآباء الكنيسة القديسي ؛ فالبطريسطيقا تعتبر بهذا المعنى تاريخاً للأدب الكنيسي في عهده الأولي ، ودرسا للمقيدة والسنن المسيحية ، فضلا عن هذا مضمونا هاما في تاريخ الأدب الكلاسيكي الأخير . ولما كان مبحث البطريسطيقا وحده لا يمكن في الدراسات الفيلولوجية أو في تاريخ الكنيسة الشامل ، فإنه ليس من اليسير أن نتفهم نطاقها وفقا للخواطر المفيدية ووجهات نظر للمصنفين اللاهوتية فحسب .

لعله من الثابت أن التعاليم الإنجيلية ، ورسائل الرسل ، ورؤى الأنبياء ، كانت وحدها منبع للمعرفة الروحية المسيحية فيما قبل القرن الثاني . وقد جاءت بعض

النبؤات والوصايا والرسائل مجهولة المنشأ أو منسوبة إلى الشهود الرسولين في الزمن الأول . وفي غضون القرن الثاني ، بعد أن أصبح النصور الموضوعي لتعاليم الكتاب المقدس أمراً ممكناً ، ظهر من المفكرين المسيحيين من عرفوا بأباء الكنيسة الذين لم يمد في وعيهم أنهم شهود لدعوة المسيح كما كانت تشر أجيال العصر الرسولي وما بعده ، ولم يمد كذلك في حسابهم أن يكتبوا مؤلفات من نوع الأناجيل وأسفار الرؤيا وبشارات الرسل . لقد كانوا رجالاً أرادوا ، بإطلاق حريتهم ، أن يضعوا ثقافتهم ومواهبهم في خدمة الكنيسة ، فقدموا لها تفاسير ومجروها ومقولات جدلية ودفاعية عن العقائد المسيحية ، لها صفة تصنيفية وتهذيبية ، وتاريخية في بعض الأحيان .

ولما كانت الأدب المسيحي قسبي نما في يادى الأمر على يد المثبتين في الكنيسة اليونانية ، فلم يكن من المستطاع بطبيعة الحال أن يتطور الفكر الديني بعيداً عن تأثير العقلانية اليونانية وتقليد الثقافة الهلنستية . ولعل تساق الفسك المسيحي بصفة عامة مع كثير من مفاهيم التراث الكلاسيكي ، ذلك التساق الذى هو من عمد الثقافة الأوربية ، كان أهم إنجازات آباء الكنيسة الذين لم يكن يعنيه في واقع الأمر ، وفي خضم الجدل حول مضامين العقيدة والتربية المسيحية ، مجرد الحفاظ على تراث العالم القديم بقدر البحث عن الحقيقة المطلقة التى لا تنبعث هناك ، وإنما هم يجدونها في الكتاب المقدس وفي تقاليد الكتاب على مر تمصور . وإذا كانت البطريستيقا كما سبق أن قلنا هى دراسة تاريخ الأدب الكنيسى القديم وتاريخ الدوغما ، الذى يعرض فيما يعرض وجهات النظر اللاهوتية ، فإنه يصبح من المتعين على المؤرخ أن يمدق النظر في مهمة الكنيسة وفي دروس وتعاليم الآباء ، حتى يتوهم الفكر الروحي فيما ينبع في ذلك العالم والزمان .

والأماكن الأخرى فإن مفهوم « أبى الكنييسة » ، كما قال فريدرش أوفريك ،
 قد نشأ عن اعتبارات دوغماطية صرفة ، وعن حاجات البرهان على التعاليم
 الجلمة (هـ) . فقد انصرف الاهتمام إلى تجميع شواهد التورات والمعقديات من أجل
 اسناد التعاليم الدارجة الموثوقة والمظنونة على السواء . وبهذا القصد عنى الفسكرون
 فى القرن الرابع بمقولات اللاهوتيين الأسبقين ، بوصفها إمامة مع الشرائع وأسفار
 الكنائس المقدسة . والمثل هذه المنايا الدوغماطية بالتقليد الكنيسى لاتزال تلعب
 دوراً هاماً فى اللاهوت الكاثوليكى حتى يومنا هذا .

غير أن علم اللاهوت يختلف فى اعتباره وفى نظره إلى بعض الشراح الأوائل
 الذين أصابوا فى عصورهم قدراً عظيماً من الشهرة وذاع صيتهم فى تفسير العقيدة .
 فهو ينبى عن أورينين الاسكندرانى لقب أبى الكنييسة بصفة قاطعة ، كما يرتاب فى
 حجية أكليمينس هذا . وإن قد أولى أغلب الآباء وفى مقدمتهم جوستين ، وأرنايوس ،
 ويوساب أسقف قيسارية فلسطين ، وأطناس ، وفازيل العظيم ، وغريغور النازيانى ،
 وغريغور النيساوى ، وسيناز القورى ، ويوحنا ذهبى الفم ، والأبنا كيرلس بطريرك
 الاسكندرية ، تقديرًا خاصاً بوصفهم صفوة المثقفين والعلماء فى الكنييسة .
 ولا جدال فى أن هذا التصنيف اللاحق يمد بالضرورة ثقياً للشرعة المسيحية
 والأدب المسيحى القديم .

ومن الجدير بالذكر أن سيقاً من الحجج « الأبوية » قد عد ضمن التراث
 الرسمى ، وأصبح مع العهد الجديد فى مجموعة الشرائع الدوغماطية القياسية . هذا
 وإن كنا نرى أن اللاهوتيين قد استبعدوا بعض المقولات ، على الرغم من قدم عهدها
 كما اعتبروا بعضاً آخر مقولات أبوقريفة كموزها الصحة . ولا ينبى على المؤرخين أن
 يقفوا عند هذه الفروق ، إذ أن الأبوقريفة لها دلالة خاصة ولا شك بالنسبة للمسائل
 الكنيسية ، بل أن صحة مضمونها يمكن أن تتأكد من واقع ما قد ينطبق عليها

من نصوص العهد ، بحيث يصبح من الجلى أن الدراسة التاريخية الحقبة لآباء الكنيسة لا يمكن أن تقلل من شأنها . وما دامت البطريستيقا القديمة قد اعترفت بتلك المقولات فإنها لم تكن تعرف من ثم ما أسماه فريدريش أوفريك بحالة الفوضى والاضطراب .

لقد دعا أوفريك بوصفه فقيهاً ومؤرخاً إلى نقد مؤلفات الآباء نقداً أدبياً دقيقاً وهذا يعنى بالدرجة الأولى دراسة النصوص « الأبوية » دراسة تحليلية . ولعل هذا المنهج هو الذى صادف منذ القرن التاسع عشر مزيداً من الإجماع بين العلماء ، رغم أن الهدف من ورأته لم يتحقق بمدى بصفة تامة ، ولا نفقده أنه سوف يتحقق على هذا النحو ، إذ أن النظرة التاريخية الأدبية هذه ليست كافية بمحد ذاتها ، ولا يمكن أن نضمها وحدها فى اعتبارنا ونحن بصدد الدراسة البطريستيقية الموضوعية . فلم يكن يدور وقتذاك بخلد واحد من آباء الكنيسة أنه من علماء اللاهوت أو جماعة الأدباء بالمعنى الذى نعرفه ؛ فالآباء كانوا ، حسب ظنهم ، يبسطون الحقيقة التى استرشدوها من أجل صلاح الطائفة المسيحية ، والتى توجب عليهم أن يبشروا بها العالم أينما كانوا بعيداً عن مدارج الخطابة والبيان . لقد كانوا فى نظر أنفسهم معلمين للكنيسة وفلاسفة مسيحيين وأصحاب حركة تنويرية لشرح الكتاب المقدس .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه بالجدل الذى ثار حول أول اللاهوتيين من آباء الكنيسة اليونانيين الذين حاولوا فهم المسيحية بروح الفكر الاغريقى ، ونعنى به جوستين الشهيد أو جوستين الفيلسوف كما كان يلقبه المعاصرون . وكان من الطبعى أن يثور مثل هذا الجدل ، إذ أن تاريخ الفكر يمتد عبر مراحل تتداخل بحكم الضرورة على نحو من شأنه أن يحمل التحديد الذى يضمه للمؤرخ لبداية ونهاية أية مرحلة من هذه المراحل من قبيل التيسير على الدارسين ليس إلا ، وهذا مالا يمكن أن ينطبق على الواقع كما نرى .

حقاً لقد تمت كذلك في النصف الأول من القرن الثاني محاولات عرضية لسوق الرسالة للمسيحية في عبارات فلسفية ، بقصديتيان أبعاد جديدة ، غير أنها كانت محاولات تفتقر إلى الجدوية في خلق منهج للتفسير اللاهوتي ، الأمر الذي يجعل صدارة آباء الكنيسة من حق جوستين ، فقد كان أول من فسر العقيدة المسيحية بتعاليم الفلسفة الأفلاطونية ، وسبق أكليمنس ومدرسة الاسكندرية بمسكرة « اللوغوس سبرماتيكوس » التي تعنى بلوغ الحقيقة في المسيح ، كما سبق أوريجين الاسكندري وبوساب القيساري بفلسفة التاريخ المسيحية .

وبما سبق قوله فإنه يصعب علينا أن نضع بالتالي نهاية لحقبة آباء الكنيسة ، وأن كنا نستطيع أن نتلخص هذه النهاية بقدر الإمكان ، في الفترة التي أخذ التغير فيها يطرأ على تقليد الآباء ، وأخذت حرية البحث الجـدلى لسكتب المهد تتحدد من أساسها ، وبعبارة أخرى عندما تغير المنهج اللاهوتي وأصبح أسكولائياً منذ القرن الخامس على التقريب .

ومن المرجح ، حسبنا نعرف من تاريخ الفكر المسيحي ، أن أدب آباء الكنيسة اللاتين بدأ بمؤلفات البرشتر القرطاجي زرتوليان ، وذلك بعد نحو مائة عام على بدنية أدب الكنيسة اليونانية الذي ظل الأدب الرائد في الغرب اللاتيني إلى قرابة نهاية القرن الرابع . ومع ذلك نرى أن الحياة الكنيسية في أوروبا اللاتينية قد اكتسبت بادية ذي يده شكلاً جديداً لم يسبق أن عرفته المسيحية اليونانية من قبل ، وأن اللاهوت بصفة خاصة أخذ يتطور تطوراً ذاتياً كان له على عالم النصرانية أثر طاق بكثير أثر اللاهوت اليوناني ، الذي كان مساره في تيار الفكر الاغريقي ولا شك على حساب الأصول العبرانية في المهد القديم .

صحيح أن الغرب اللاتيني ، كما هو الحال في شأن الكنيسة القديمة ، كان قد انضوى منذ زمن بعيد تحت لواء الثقافة اليونانية ، ولعل هذا هو الذي عجل بتطور الكنيسة الغربية ، غير أن تراث العالم الروماني لم يترب في أفق الفكر الهلنستي ،

وإنما أكنه بالحوار أن يحتفظ بصفاته وأن يصوغ قالباً فكرياً طبعته العقلية الرومانية بطابعها الخاص . وإذا كان الآباء اللاتين قد درسوا الثقافة الدينية واستقوها من علوم الأساقفة اليونان ، إلا أنهم اختطوا لأنفسهم منذ البداية مدخلاً خاصاً إلى الكتاب المقدس وقبل كل شيء إلى العهد القديم .

وصحيح كذلك أن تحتفظ الآباء اللاتين ، قبل ميول الفكر الإغريقي الفلسفية واتجاهاته الميتافيزيقية . قد زال في القرن الرابع ، وازدهر اللاهوت من جراء ذلك ازدهاراً كبيراً ، نفسه في مؤلفات القديس أوغسطين ، إلا أن هذا اللاهوت « الفاسق » الجديد لم يخاص كذلك من أصول التفكير الرومانية ، ولذلك لم يكن محض مصادفة أن يهتم اللاهوت اللاتيني بالمسألة التي أثارها بولس الرسول عن الإيمان والتأموس . وإلى كد اللاهوت اليوناني لا يهتم لها ، بل أنها ظلت في معناها غريبة عنه إطلاقاً .

وعلى أية حال كانت هذه الألفة للحرية بين الوجود الروماني واليهودية هو الذي جعل الكنيسة اللاتينية قادرة على إدراك ما كان « الإنجيل » يعني بالنسبة لها .

ويهمني في ختام هذا البحث أن أقدم ثبثاً بمجموعات المصادر والكتب التي تلزم الباحث في الباترولوجيا وتاريخ اللاهوت . أما كتب تاريخ الكنيسة واللاهوت وتاريخ الأدب المسيحي فهي كثيرة ، وأرجو أن أعرض لها في سياق آخر . وإن كنت أجد من الضروري أن أشير إلى مولر « تاريخ الكنيسة (٦) » وليفسمان « تاريخ الكنيسة القديمة » (٧) . وهارناك « تاريخ الأدب المسيحي حتى يوساب » (٨) وشيلين « الأدب اليوناني للمسيحي القديم » (٩) . وباردنيغو « تاريخ الأدب الكنيسي القديم » (١٠) لما لهذه المؤلفات من أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا هذا .

Adnotationes

(1) Campenhausen (H. F. V.), Griechische Kirchenväter. 4. Aufl. Stuttgart 1967.

(2) Campenhausen (H. F. V.), Lateinische Kirchenväter. 2. Aufl. Stuttgart 1965.

(3) Paetow (L. J.), A Guide to the Study of Medieval history. Revised edition prepared under the auspices of the Medieval Academy. of America New York 1964.

(4) The Oxford classical dictionary. 2nd ed. Oxford 1970 S. V. Justin Martyr.

(5) F. Overbeck, Ueber die Anfänge der patristischen Literatur : Historische Zeitschrift 48 (1882). 418 : "Der Begriff des Kirchenvaters stammt aus der Dogmatik und ist aus den Bedürfnissen des Katholischen Traditionsbeweises entstanden".

(6) Mueller (K.), Kirchengeschichte. 2 Bde. Tübingen 1892-1902. Im Grundriss der theologischen Wissenschaften IV 2 (II, 3. Aufl. 1941 in Gemeinschaft mit H. Von Campenhausen).

(7) Lietzmann (H.), Geschichte der alten Kirche. 4 Bde. 2. u. 3. Aufl. 1953.

(8) Harnack (A.), Geschichte der christlichen Literatur bis Eusebius. I. Ueberlieferung und Bestand 1893. II. Chronologie 1897-1904.

(9) Staehlin (O.), Die altchristliche griechische Literatur. Als Teilband Von W. V. Christ, Geschichte der christlichen Literatur. 6. Aufl. Muenchen 1924.

(10) Bardenhewer (O.), Geschichte der altkirchlichen Literatur. 4 Bde. Freiburg i. B. 1913 —.

Libri

Altaner (B.), Leben, Schriften und Lehre der Kirchenvaeter : in Patrologie. 6. Aufl. 1960 — Bach (j.), Die Dogmengeschichte des Mittelalters Vom christologischen Standpunkt. Bde. Wien 1873—1875—Bibliothek der Kirchenvaeter. 2. Aufl. Kempten-Muenchen 1911 — Bonwetsch (C. N.) Grundriss der Dogmengeschichte. Muenchen 1908 — Clavis patrum Latinorum (= Sacris Erudiri III 1951). ed. E. Dekkers, E. Gaar — Corpus Christianorum (Series latina) St. Peters-Abtei in Steenbrugge 1953 — Corpus ecclesiasticorum latinorum. Wien 1866 — Fischer (G. P.) History of Christian doctrine. New York 1896 (The international theological library IV) — Griechische christliche Schriftsteller der ersten drei Jahrhunderte. Berliner Akademie 1897 — Hagenbach (K. R.), A history of Christian doctrines (English translation). Edinburgh 1883-1885 — Harnack (A.), Dogmengeschichte. 4. Aufl. Tuebingen 1905 — Harnack (A.) Lehrbuch der Dogmengeschichte. 3 Bde. Freiburg 1886 — 4. Aufl. Tuebingen 1909-1910. 5. Aufl. 1932. Translated from the 3rd ed by N. Buchanan, History of dogma. 7 Vols. London 1897 — Loofs (Fr.), Leitfaden zum Studium der Dogmengeschichte. Halle 1889. 5. Aufl. hrsg. Von K. Aland 1950—1953. 6. Aufl. 1959—Patrologiae

Cursus Completus. ed. J. P. Migne. Series Latina.
 Paris 1844—Series Graeca Paris 1857. Supplementum.
 ed. A. Hamman 1958 — Quasten (J.), Pat. logz.
 Utrecht 1950—Sammlung ausgewählter Kirchen- und
 dogmengeschichtlicher Quellenschriften. hrsg. Von
 G. Krueger. Tübingen — Leipzig-Freiburg 1891-1911
 — Schmaus (M.), Geiselmann (P.), Rahner (H.)
 (hrsg.), Handbuch der Dogmengeschichte. 1951 —
 Seeberg (R.), Grundriss der Dogmengeschichte.
 3. Aufl. Leipzig 1910 — Seeberg (R.), Lehrbuch der
 Dogmengeschichte. 2 Bde. 2. Aufl. Leipzig 1908-1910.
 Translated into English by C. E. Hay. 2 Vols.
 Philadelphia C. 1905 — Thomasius (D.) Die
 Christliche Dogmengeschichte 2 Bde. Erlangen
 1836-1887 — Tixeront (J.), Histoire des dogmes.
 3 tomes. Paris 1906-1912. Translated by H. L. B.,
 History of dogmas. St. Louis 1910

